الأدب الكبير

الخطابي البُستي العُزلة بوصفها فلسفة حياة

محطّات الخلّان ومنازل الوحدة

تُلقي هذه الزاوية الضوء على كتب واسماء اساسية من التراث العربي والاسلامي انشغلت بالانساني والكوني، ما يجعلها راهنة في ايّامنا هذه. هنا عودة الى «كتاب العزلة» لابي سليمان الخطابي البُستي، احد كتب التراث النادرة التي ساءلت مفهوم الوحدة

سهام بوهلال

من المفاهيم التي نادراً ما تطرّق لها رؤاد التراث العربي القديم، مفهوم الوحدة أو العزلة، خارج مقاماتها الصوفي ومعنى الخلوة للتعبّد والاعتكاف على العبادة كما وصفه أهل الطريق، وبعيداً عن مفهوم «الهيمان على الوجه» الذي جَسّدته بالدرجة الأولى شخصية مجنون ليلى، الذي سجّل التاريخ عنه أن العشق «أخرجه للوسواس والهيمان، وذهاب العقل، وهبوط الأودية، وصعود الجبال، والوطء على الغوْسج وحرارة الرّمال، والتفرّد بالصّحاري والاستيحاش من النّاس، والاستئناس بالوحش» (كتاب «الموشّى»، القرن الثالث الهجري). وهو . أي المجنون . الذي يقول قبل أن يعتزل النّاس: «وأنّي لأستغشي وما بي نعسةٌ/ لعلّ خيالاً منكِ يلقى خياليا/ وأخرجُ من بين الجلوس لعلّني/ أحدّث عنك النّفس بالسرّ خاليا».

وكَثُر الكلام في التراث القديم عن الإخوان والأصدقاء والسعي وراءهم، واكتساب أكبر عدد منهم للاعتداد بهم، والاستمتاع بأطراف الحديث معهم، حتى قال معاوية بن أبي سفيان لعمرو بن العاص: ما بقي ممّا تستلذّه؟ فأجاب: مجالسةُ الرجال. والمجالس هي عماد هذه الحضارة ومكوّن أساسي لها. وليست فصول ذمّ ما سمّوه بإخوان السوء، إلّا للحثّ على التريّث بالصديق المساعد. وبالمقابل، قلّ الحديث عن الخلوة والعُزلة، ولكنّ لم ينعدم.

وقد أفرد أبو سليمان الخطابي البُستي (توفي سنة 388 هجرية)، وهو من مدينة بُست بأفغانستان، كتاباً في ذلك لم يسبقه إليه أحد، وهو «كتاب العُزْلة». وفيه يشرع ـ بالأسلوب المتدرّج الشائع الحذر لدى الفقهاء والكتّاب القدماء ـ في تحديد ما يعنيه بالعزلة، نافياً عن نفسه تهمة الضرر بالآخرين من سوء النصيحة، قبل حدوثها: «وأما عزلة الأبدان، ومفارقة الجماعة التي هي العوام، فإن من حُكمها أن تكون تابعة للحاجة وجارية مع المصلحة، وذلك أن عظم الفائدة في اجتماع النّاس في المدن وتجاورهم في الأمصار إنّما هو أن يتصافروا فيتعاونوا على المصالح ويتآزروا فيها، إذ كانت مصالحهم لا تكتمل إلّا به، ومعايشهم لا تزكوا إلا عليه. فعلى الإنسان أن يتأمّل حال نفسه فينظر في أية طبقة يقع منهم وفي أية جنبة ينحاز من جملتهم، فإن كانت أحواله تقتضيه المقام بين ظهرانَي العامّة لما يلزمه من إصلاح المهنة التي لا غنية له عنها، ولا يجد بُدّاً من الاستعانة بهم فيها، ولا وجه لمفارقتهم في الدار، ومباعدتهم في السكن والجوار، فإنّه إذا فعل ذلك تضرّر بوحدته، واضرّ بمن وراءه من أهله وأسرته. وإن كانت نفسه بكلّيتها مستقلة، وحاله في ذاته وذويه متماسكة، فالاختيار له في هذا الزمان اعتزالُ الناس ومفارقة عوائهم، فإن السلامة في مجانبتهم والراحة في التّباعد منهم».

وبعدما آبان على حُسن اختيار الوحدة، يواصل تدقيق المعنى المُراد والحال المُنتفَى بالعزلة: «إنّما نريد بالعزلة ترك فضول الصُّحبة ونبذ الزيادة منها وحطّ العلاوة التي لا حاجة بك إليها، فإن مَن جرى في صحبة الناس والاستكثار من معرفتهم على ما يدعو إليه شغفُ النفوس وإلف العادات وترك الاقتصاد فيها، كان جديراً ألّا يُحمد غِبّه وأن تُستوخم عاقبتُه، وكان سبيلُه في ذلك سبيل مَن يتناول الطعام في غير أوان جوعه، ويأخذ منه فوق قدر حاجته، فإن ذلك لا يلبث أن يقع في أمراض مُدنفة، وأسقام مُتلفة، وليس مَن علِم كمَن جهل، ولا من جَرب وامتحن كمن ماد وخاطر».

ويستمرّ في شرح العزوف عن وحدة الأبدان، ليقرنها بخلوّ الأذهان من كفاية الفكرة والتأمّل: «قال بعض الحكماء: إنما يستوحش الإنسان بالوحدة لخلاء ذاته وعدم الفضيلة من نفسه، فيتكثّر حينئذ بملاقاة الناس، فإذا كانت ذاته فاضلة، طلب الوحدة ليستعين على الفكرة ويتفرّغ لاستخراج الحكمة». ويروي البستي عن علي بن سهل بن المغيرة عن أبيه: رأيتُ شريكاً (بن عبد الله مات سنة 144 هجرية) وقد خرج من دار المهدي، فاحتوشَه (أي أحاطوا به) أصحاب الحديث، فتقدّمتُ إليه وقلت له: اطردهم عنك يا أبا عبد الله، قال: واطْردُ معهم! ويكتب أبو سليمان البستي: «ويُقال إن الحكمة عشرة أجزاء: تسعة منها في الصمت والعاشر في عزلة الناس». ويضيف: «ورأيت أن خير هذه الأجزاء عزلة الناس، وللعزلة شرط تلخّصه كلمتان: تَفَقُّه ثم اعتزل».

جزء من منمنمة إسلامية تعود إلى منتصف القرن السابع عشر (Getty)

في الوفاء مع الدين

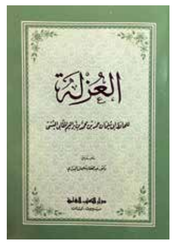

يؤنّس البُستي، في «كتاب العزلة»، للوحدة كفلسفة حياة محضة، منفصلة عن اي اعتبار ديني او سياسي. لكنّه يورد مبرّرات دينية وسياسية في بداية كتابه، حتى لا يلومه لائم او يُنقص من دينه. وعلى نحو موافق العصور الاولى للاسلام، يقوم بذكر جُلّ الآيات والاحاديث التي تدعو للاختلاط والائتلاف، ثم يعرض من الآيات والاحاديث ما يدحض او يُلغي الاولى، ويتّخذها حججا تفتح ابوابا لسلوك اجتماعي مختلف لا يعارض الدين.

> تَوَحَّدْ ما امكنكَ، فمن وطنه الاعين، وطنه الارجل
>
> يستوحش الإنسان بالوحدة لخلاء ذاته وعدم الفضيلة من نفسه

التي لا حاجة بك إليها، فإن مَن جرى في صحبة الناس والاستكثار من معرفتهم على ما يدعو إليه شغفُ النفوس وإلف العادات وترك الاقتصاد فيها، كان جديراً ألّا يُحمد غِبّه وأن تُستوخم عاقبتُه، وكان سبيلُه في ذلك سبيل مَن يتناول الطعام في غير أوان جوعه، ويأخذ منه فوق قدر حاجته، فإن ذلك لا يلبث أن يقع في أمراض مُدنفة، وأسقام مُتلفة، وليس مَن علِم كمَن جهل، ولا من جَرب وامتحن كمن ماد وخاطر».

ويستمرّ في شرح العزوف عن وحدة الأبدان، ليقرنها بخلوّ الأذهان من كفاية الفكرة والتأمّل: «قال بعض الحكماء: إنما يستوحش الإنسان بالوحدة لخلاء ذاته وعدم الفضيلة من نفسه، فيتكثّر حينئذ بملاقاة الناس، فإذا كانت ذاته فاضلة، طلب الوحدة ليستعين على الفكرة ويتفرّغ لاستخراج الحكمة». ويروي البستي عن علي بن سهل بن المغيرة عن أبيه: رأيتُ شريكاً (بن عبد الله مات سنة 144 هجرية) وقد خرج من دار المهدي، فاحتوشَه (أي أحاطوا به) أصحاب الحديث، فتقدّمتُ إليه وقلت له: اطردهم عنك يا أبا عبد الله، قال: واطْردُ معهم! ويكتب أبو سليمان البستي: «ويُقال إن الحكمة عشرة أجزاء: تسعة منها في الصمت والعاشر في عزلة الناس». ويضيف: «ورأيت أن خير هذه الأجزاء عزلة الناس، وللعزلة شرط تلخّصه كلمتان: تَفَقُّه ثم اعتزل».

وبعد طرح ضرورة الوحدة كابلغ وجوه الحكمة، يشمل الخاصّة في كلامه بعدما استقصد العامّة فقط، ويكون قد بلغ بالعزلة اعلى مقاماتها: «ومن قول بعضهم، وقد كان لزم المقابر فكان يغدو إليها ويروح ومعه دفتر، فقيل له في ذلك، فقال: لم أر أسلم من وحدة، ولا أوعظ من قبر، ولا جليسا امتع من دفتر». وللجاحظ نصوص شهيرة تحتفي بالكتاب كخير جليس ومؤنس. وللمتنبي في نفس المعنى بيته الشهير: «أجَلّ مكانٍ في الدُّنى سرجُ سابحٍ/ وخيرُ جليس في الزّمان كتابُ». ولم يفُتْ أبا سليمان التطرّق لمزيّة للعزلة تحدّثتْ عنها جلّ كتب العصور الأولى، وأثارت الأحاديث والنّتف ودخلت في باب السخرية والمزح: «في العزلة السلامة من صحبة الثقيل ومؤنة النظر إليه، فإن ذلك هو العمى الأصغر! ومن ذلك أيضاً، قيل للأعمش: مِمّ عمشت عيناك؟ قال: من النظر إلى الثقلاء. وقال الأعمش، قال جالينوس: لكلّ شيء حُمّى، وحمّى الرّوح النظر إلى الثّقيل».

وفي رسالة «الشهاب الثاقب في ذمّ الخليل والصّاحب» يقول السيوطي (القرن التاسع الهجري): «ومنهم من اعتبر أن الوحدة مراة العقل». وهذا من أدلّة البستي على ضرورة العزلة وتفوّقها كصيغة للعيش، حيث يورد أبياتاً له: «إذا خَلَوْتُ صفا ذهني وعارضني/ خواطر كخطار البَرْق في الظُّلَم/ وإن توالى صياحُ النّاعقين على/ أُذُني، عَرَتْني منه لكنة العجم». ويشرح البُستي هذه الحال بدقّة في قوله: «وفي العزلة أنها مُعينةٌ لمن أراد نظراً في علم، أو إثارة لدفين رأي، أو استنباطاً لحكمة، لأنّ شيئاً منها لا يجيء إلّا مع خلاء الذرع، وفراغ القلب». ولإمام الشافعي في ذلك: «أخْفِ نفسك في تفريدها أبداً».

ويستطرد البستي: «كتب رجلٌ من أهل الموصل إلى بشر بن الحارث يستأذنه أن يلقاه، فقال بشر: «أحبُّ إخواني إليّ من لا يراني ولا أراه». وينظم في هذا المعنى (الاكتفاء من الصديق بغيابه): «وإنما منهم صديقي/ من لا يراني ولا أراه».

(شاعرة وروائية مغربية مقيمة في باريس)

النص الكامل
على الموقع الالكتروني

إطلالة

أبو حيان التوحيدي والاعتراف المتأخّر

ثقافة عصرٍ في شخص

عاش ابو حيّان مفكراً غريباً بين اهل عصره يعاني من الوحشة. لم يبخل في بذل فكر او يتوانَ عن بذل جهد، من دون ان يُكافا بالتقدير الواجب

فوّاز حداد

يعود الفضل في الخزّان الثمين للذاكرة الثقافية العربية إلى الكثير من المؤرّخين والفلاسفة والفقهاء والأدباء، أحد هؤلاء التوحيدي، الذي كان نمطاً وحده في جهده العظيم. لولا عنايته بجمع ما كاد أن يضيع هباءً من تلك الذاكرة، لذهبت أدراج الرياح، أو نُسيت مع الزمن، ولولا جهود غيره أيضاً، لضاع تراث أمّة وعصور بكاملها. وإذا توقّفنا إزاء الجهود الفردية لجرفة الوراقة، فلأنّ لها فضل صيانتها وحملها من عصر إلى عصر.

احترف أبو حيّان التوحيدي مهنة الوراقة . وكانت في أحد جوانبها نسخ الكتب ـ فنسخ عشرات، وربما مئات الكتب. أكسبه ذلك اتّساعاً في معارفه، وأضفى على ما نسخه سلامة اللغة وجمالها. بالمقابل، أغنى استنساخُها ثقافته، وتبدّى بحسن انتقاء ما جمعه في كتبه، رغم اختلاف الآراء، وتباين الأفكار وتعارضها، كما في «الإمتاع والمؤانسة» و«البصائر والذخائر» و«الهوامل والشوامل» و«الصداقة والصديق» وغيرها.

تُثير ثقافة أبي حيّان الواسعة واطّلاعه الغزير الإعجاب الشديد؛ تضمّ مسائل من كلّ علم وفن: أدب، وتفسير، وحديث، ولغة، وبلاغة، وسياسة، وفلسفة، وأخلاق، وعلم، وحيوان، وطبيعة، وفكاهة، ومجون، وما تداوله الولاة ورجال الدولة والحكم من آراء في الحُكم، وما جادت به القرائح في الشّعر والنثر، وما رُوي عن الشعراء والأدباء وغيرهم من أخبار، وما تناقله الرواة من الحِكم والأمثال والطرائف والنوادر، وما حفل به التاريخ من حوادث، وتحليل لشخصيات عصره من فلاسفة وأدباء وعلماء، وتصوير للعادات وتقاليد الجلسات وأحاديثها. بحرٌ زاخر بالمعلومات والمعارف والمتعة، تُشكّل صرحًا ثريًا جامعًا بلغة ناصعة، وأسلوب رائق، لم يُبارِه أحدٌ في بلاغة نثرها وشعرها.

لم يكن التوحيدي مجرّد ناسخ وناقل؛ كان مفكّرًا موسوعيًا مزج الفلسفة بالأدب، وجمع بين التراث اليوناني والثقافة العربية، مع حكمة شعبية وطرائف ممتعة. تلقّى العلم على يد كبار العلماء، فدرس علوم القرآن والفقه والشعر والحساب، ودرس الفلسفة وعلم الكلام والمنطق والعربية والفقه الشافعي. أمّا الدراية بثقافة عصره، فقد أتاحتها له المشاركة في المجالس الأدبية والندوات الفكرية، وتردّده على مجالس الوزراء، أمثال ابن العميد والصاحب بن عبّاد.

لم تخلُ مساجلاته من أحاديث أدبية ممتعة، ومناقشات فلسفية شيّقة وطرائف علمية مفيدة. ولم يكن تزيّدًا وصف ياقوت الحموي للتوحيدي في معجم الأدباء: «فيلسوف الأدباء، وأديب الفلاسفة، ومحقّق المتكلّمين، ومتكلّم المحققين، وإمام البلغاء»، نظرًا لما احتوته أعماله من شذرات فلسفية عميقة، أكثر ما تجلّت في المناظرات الفلسفية. ففي كتابه «المقابسات» موضوعاتٌ تطاول أمورًا في غاية الأهمية، مثل: تطهير النفس باجتناب شهوات الجسد، والناموس الإلهي، والزمان والمكان، والحياة والموت، واللاهوت، والعلة والمعلول، والصداقة... وغيرها.

رغم كلّ هذا العطاء، لحقّهُ الكثير من الغبن والإهمال الشديد، ما أصابه بالغيرة والحسد، فلم يقصّر في هجائهم والتعريض بهم، ما ارتدّ عليه بضروب من الخصومة والنقمة والعداء. لم يظفر التوحيدي بما يستحقّه من مجد وشهرة في عالم الأدب والفلسفة والتصوّف الذي منحه حياته كلّها، وكان الممثّل الحقّ لثقافة عصره.

يعبّر التوحيدي عمّا لحقه من ظلم وشظف في العيش، بما يفيض من أسى متفاقم يخالط كلماته: «إني نقلت هذا الكتاب والدنيا في عيني مُسودّة، وأبواب الخير دوني منسدّة، لثقل المؤونة ولقلّة المعونة، وفقد المؤنس، وعثار القدم بعد القدم، وانتشار الحال بعد الحال. هذا، مع ضعف الركن واشتعال الشيب وخمود النار وسوء الجزع، وأفول شمس الحياة، وسقوط نجم العمر، وقلّة حصول الزاد، وقرب يوم الرحيل».

عاش أبو حيّان مفكّرًا غريبًا بين أهل عصره يعاني من الوحشة. كان أكثر أهل زمانه علمًا ومعرفة وموهبة؛ لم يبخل في بذل فكر أو يتوانَ عن بذل جهد، من دون أن يُكافأ بالتقدير الواجب. كان مغمورًا، ويستحقّ أن يكون مشهورًا. وجاء زمانٌ تلو زمان، وأجيال تلو أجيال، لم تُغمطه حقّه من التقدير؛ اعترفت بمكانته، وكانت مكانةً سامقة.

(روائي من سورية)

> لم يظفر التوحيدي في حياته بما يستحقّه من مجد وشهرة

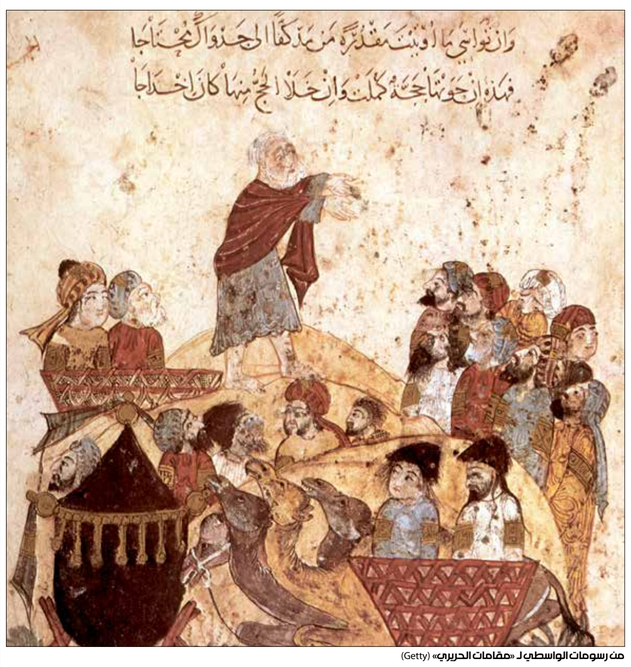
من رسومات الواسطي لـ «مقامات الحريري» (Getty)

النص الكامل
على الموقع الالكتروني

ذكرى ميلاد

فرانس فانون ذاك الحضور الذي لم ينقطع

ما يدين به الفكرُ للغضب

تحلّ ذكرى ميلاد المفكّر والطبيب النفسي المارتينيكي فرانس فانون قصيرةً بعدد السنين، وهو الذي رأى النور 36 عاماً فحسب، فإنّ تأثير تجربته وأعماله ما يزال مستمرّاً حتى يومنا هذا . بل إن أثره يزداد حضوراً منذ سنوات قليلة. فها هي ذكرى ميلاد صاحب «معذّبو الأرض» (وُلد في العشرين من تمّوز/ يوليو 1925 في فور . دو . فرانس بجزيرة مارتينيك، ورحل عام 1961 في مستشفى قرب واشنطن) تأتي اليوم في وقت يُستعاد فيه اسمه في أكثر من مكان ومناسبة: من صدور ترجمة برتغالية في البرازيل لكتاباته السياسية قبل أيّام عن منشورات «بويتيمبو إيديتوريال»، إلى إعادة طبع عدد من أعماله في فرنسا أخيراً، وصولاً إلى «حضوره» كشخصية محورية في مسرحية تُعرض هذه الأيام في «مهرجان أفينيون» جنوب فرنسا، للكاتب السنغالي فيلوين سار والمخرج الرواندي دورسي روغامبا، بعنوان «الحرّية: ساعيش في حلمك حتى المساء الأخير».

علّمنا التاريخ أن الاشتغالات الكتابية والفنية التي يدوم أثرها غالباً ما تجمع بين أكثر من ميزة، مثل الأصالة أو التأسيس لجديدٍ ما؛ الخصوبة التي يسمحان بإعادة إنتاجها؛ ومُقاومة الأثر الذي يفعله مرور الزمن، وذلك إمّا لأن الأسئلة التي تُحاول الإجابة عنها ما تزال راهنة، أو لكتاباتها وتوقّفها عند ما سيأتي من بعدها.

تحمل أعمال فانون أغلب هذه الميزات، مع أن أسئلة الاستعمار التي حاولت الإجابة عنها قد ذابت مع انقضاء الزمن الاستعماري. لكنّ هذه الأسئلة انحلّت في زمن بليه، هو زمننا: ما يُسمى بما بعد الاستعمار؛ هذا الزمن الذي لم ينس قروناً من الهيمنة ومن استعباد بعض البشر بشراً آخرين مختلفين؛ أو هذا الزمن الذي ما يزال يعيش تبعات تلك القرون ويحاول الخروج منها.

> هل كانت تجربته ممكنة بلا مقاساة شخصية وإصغاء لمُعذّبي الارض؟

لكنّ راهنية المواضيع التي واجهها فانون ليست السبب الوحيد في كونه اليوم، إلى جانب إدوارد سعيد، مصدراً أساسياً في كثير من الأعمال التي تُحاول التنظير للعلاقات ما بعد الاستعمارية بين الشرق والغرب، أو بين الشمال والجنوب. ثمّة أيضاً غِنى تجربته التي انمزجت فيها المعاناة والمعاينة الشخصيّتين بالعلاج النفسي والتنظير الفكري. هل كان ممكناً تخيُّل كتاب مثل «بشرة سوداء، أقنعة بيضاء» (1952) . وهو الكتاب المؤسّس في مساره . من دون مقاساة شخصية، وإصغاء لمُعذّبي الأرض بغرض علاجهم، والتفكير بهاتين التجربتين بغرض استخلاص مقولات فكرية منهما؟

لم يكن فانون أوّل مَن كتب عن علاقة المستعمَر بالمستعمِر والمهيمَن عليه بالمهيمِن. سبقه إلى ذلك كتّابٌ كبروه سنّاً أو جايلوه، ومنهم معلمه إميه سيزير. لكنّه، بخلاف سيزير، سرعان ما غادر منصّة الأدب لمساءلة القضية نظرياً. مَن يعرف أعمال فانون المسرحية المبكّرة؟ لا أحد تقريباً خارج المتخصّصين في تجربته. أمّا مؤلّفاته النظرية، التي سعى فيها إلى تسمية تجارب حياتية ونفسية واجتماعية وسياسية بلغة تحليلية، فهي معروفةٌ بما يكفي.

فرانس فانون في عمل لـ فؤاد هاشمي. مواد مختلفة على قماش

النص الكامل
على الموقع الالكتروني

فعاليات

ضمن فعاليات «مهرجان ليفربول للثقافة والفنون العربية» يُعرض عند الثامنة من مساء بعد غدٍ الخميس فيلم **اريكة في تونس** (2019) للمخرجة التونسية **منال العبيدي**. يتناول العمل قصّة سلمى التي قرّرت العودة الى تونس بعد غياب عشر سنوات في فرنسا، لافتتاح عيادة لمزاولة مهنتها: التحليل النفسي.

القصص والبذور كاوعية للتحوّل عنوان لقاء افتراضي تقدّمه الباحثة **فيفيان صنصور** عند السابعة من مساء اليوم، بتنظيم من «دارة الفنون» في عمّان. يطرح اللقاء تساؤلات مثل: كيف يمكن التخطيط لمستقبل غذائي مختلف دون الحديث عن العدالة السياسية والاجتماعية بجرأة اكبر؟ وكيف يلعب الفنّ دوراً في صياغة المحادثات حول المناخ والاستدامة والسيادة الغذائية؟

حتى الرابع عشر من الشهر المقبل، يتواصل في «خاليري اجيال» ببيروت معرض **وقت** للتشكيلية اللبنانية **ريم الجندي** (1965) والذي افتُتح الخميس الفائت. استفادت الفنانة من دراستها لفن الايقونة في رسم شخصياتها التي تبدو مركز العمل، بحيث تَظهر الخلفية او العناصر الأخرى كمجرّد إضافة للاحتفاء بها.

يُعرض، عند السادسة من مساء الثلاثاء المقبل، في «مركز الحرية للابداع» بالاسكندرية، فيلم **ابنة رايان** (1970) للمخرج البريطاني **ديفيد لين**. تدور احداث العمل في قرية بايرلندا اثناء الحرب العالمية الاولى، حيث يسخر البطل، توم، من الجنود البريطانيين نهاراً، ويعمل مُخبراً لصالحهم في الليل.